٩٦
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الرابعة ـ العدد السابع (رجب ـ ذی الحجة ١٤٤٤)

ملحمة الزهراء عليها السلام

د. محمد مسجد جامعي

الملخّص: يشير الكاتب الى مكانة الصدّيقة الزهراء عليها السلام فى فترتين (المكّة و المدينة) فى سياق التطوّرات الاجتماعيّة بعد دراسة مكانة المرأة فى المجتمع فى فترة الجاهليّة. يوضح اهميّة زواج الصدّيقة الزهراء مع امير المؤمنين عليهما السلام فى زمانه و مكانه و يبحث مقام الزهراء عليها السلام فيما يتعلّق بوضع المرأة فى مجتمع صدر الاسلام و تفاعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الصدّيقة الكبرى عليها السلام. وصف الكاتب سيرة الصدّيقة الكبرى عليها السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله و يحلّل اهميّة تحذيرات تلك السيّدة الالهيّة من إنحراف الامّة عن الخطّ الواضح لهداية النبىّ صلى الله عليه وآله.

المفردات المفتاحيّة: فاطمة الزهراء عليها السلام ؛ السيرة و المناقب ؛ تاريخ صدر الاسلام ؛ مكانة النساء ؛ التفاعل مع فاطمة الزهراء عليها السلام ؛امير المؤمنين عليه السلام

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

المرأة في الجاهلية

كان مجتمع شبه الجزيرة العربية حين ظهور الإسلام مجتمعاً ذكورياً عموماً ـ وهو كذلك حتى الآن ـ وهذا بداعي الخصائص البيئية والتاريخية والاجتماعية، اِذ كانت الأرض فقيرة جرداء ضمّت قبائل مختلفة تتطلب العنف والإنسان الخشن، مضافاً اِلى الجوع؛ بل والعطش والجفاف.. بل إن شحّة المياه و قلّة المطر وصعوبة العيش أضاف ما أضاف لأسباب ذلك الواقع المرير..[1] وهذا الجوع اَدّى اِلى نشوب المعارك واستفحال ظاهرة الإغارات بين القبائل.. فهذه العوامل وغيرها أدّت اِلى تكرّس ثقافة مضادّة للمرأة، حيث لم يكن غير العنف ثقافةً وسلوكاً وحروباً وغارات متتالية ومتبادلة؛ وهي الأُمور التي كانت تتطلّب خشونة الرجل واستبعاداً وطرداً لعنصر المرأة؛ حيث لا قدرة لها على خوض المعارك وشنّ الغارات، بل إنها تحولت اِلى غنيمة من الغنائم المستهدفة أبداً..[2]

وإنّ من إحدى الدلائل المهمّة للثقافة المضادّة والطاردة لعنصر المرأة والبنت أن القبائل العربية كانت تستشعر الحاجة اِلى العنصر الحربي وعدم الحاجة اِلى العوامل السلبية المزاحمة التي تتعرض للأسر والسبي اَحياناً كثيرة، اِذ كان أسر المرأة يشكل أزمة حقيقية في إلحاق العار بحيثية الرجل وقبيلته عموماً. وبالنظر اِلى هذه المسائل و العوامل في تلك الحقبة؛ فقد صارت المرأة عاملاً سلبياً، لا سيما لدى الحروب وظروف المخاطر المستشعرة بين القبائل اِذ كانت الغارات القبيلية تهدد الكتل المجتمعية في كل حين..[3]

والمسألة الأكثر أهميّة أنّ المرأة اِذ ذاك لم تكن تحظى بالشأن الإنساني، فبعيداً عن أن ينظر إليها باعتبارها شريكاً للرجل، كانت تعامل كأي سلعة يحتاجها الرجل أو يمتلكها.. وكانت العلاقة الزوجية علاقة ملكية أكثر منها علاقة بين زوجين، حتى أن الرجل كان يتملكه الإحساس والقناعة بأن الزوجة مجرد مملوك له كترجمة لثقافة الحمية والرجولة

---

١. (آشنائي با تمدّن اِسلامي) ج ١، ص ١١٣؛ بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ١٧.
٢. مسند احمد بن حنبل، ج ١، ص ٢٣٦؛ المصنّف، عبد الرزاق الصنعاني، ج ٩، ص ٤٨٥.
٣. تاريخ العرب القديم، توفيق برو، ص ٢٦٩.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

والسطوة لديه.[1] ولدى ذلك كانت البنت في طوايا تلك الثقافة البليدة مدعاةً وسبباً لاحتمال تحمّل العار.. مما حدا بالكثير من الآباء اِلى وأد البنات؛ درءاً لذلك العار المزعوم.. وقد نقلت وقائع عديدة تحكي عن وأد الآباء بناتهم وقصّ ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ممّا أدّى به اِلى البكاء وذرف الدموع وطرد المتحدث عن مجلسه[2].. وهذا كان هو الواقع المرير والمعمول به.

.. ما تقدم؛ كان صورة مختزلة عن الظرف الثقافي العامّ في شبه الجزيرة العربية.. ولكن لم يكن هذا نهاية المطاف.. اِذ كانت المرأة التي تجد نفسها ضحية لتلكم الثقافة حريصة على استدراك وجبر ضعفها المدمّر شخصها وشخصيّتها عبر ما يمكنها في ممارسة المكر والحيلة والنميمة والفتنة.[3] فكانت هذه الميزة عموماً تطفح في المجتمع الذكوري المغلق متأثرةً بالظروف الاجتماعية، هذه الظروف التي تتروع فيما هذه الخصال السلبية ولها دورها الواضح في صياغة شخصية الأنثى...

ونقول: رغم أن بنت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد ولدت في هكذا بيئة ومجتمع وعاشت فيه.. ولكنها كانت متفاوتة كل التفاوت عن قريناتها، مضافاً اِلى كونها القدرة الإيجابية التامة للمرأة.. وهكذا خلقها الله تعالى وأرادها أن تكون..

مقام السيدة الزهراء عليها السلام

الواقع هو أن إدراك مراتب ومقامات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام والصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام ـ من قبل الإنسان المسلم والمؤمن وبما يناسب قابليتهما ـ منوط بمدى معرفة الحكمة والتقدير الإلهي، وفلسفة خلقة العالم، والهدف من خلقة الإنسان ومجموع الوجود، والتعرف اِلى البحوث المتعلّقة بما يسمى (الإنسان الكامل) ومنزلته إلسامية.. ولإدراك هذه المسائل ـ ولو بالمجمل ـ ينبغي الرجوع اِلى الآيات القرآنية

١. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ج ٢، ص ٥٩٥.
٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مكارم شيرازي، ج ٨، ص ٢٢٢.
٣. المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج ٨، ص ٢٠٩؛ تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبايي، ج ١٨، ص ٣٢٦.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

والروايات، لا سيما ذات الصلة بالأدعية والزيارات المطلقة والمخصوصة، حيث تتضمّن بيان المراتب العليا والمعنوية لعموم المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام..

ومع أن الفلسفة والعرفان المبتنيين على هذه المعارف يمكن أن يكون لهما دور في بيان وإيضاح العديد من المسائل المذكورة، إلّا أن التحقيق والمطالعة الدقيقة تمنح الإنسان التوفيق اِلى معرفة مناحي العظمة الروحية والأخلاقية والإنسانية الخاصة بهم عليهم السلام.

ومن بين المشارب المختلفة للمسلمين؛ هناك الشيعة وحدهم يعتقدون بأنّ شأن ومقام امرأة ما يمكن أن يصل بها اِلى دائرة العصمة والإنسان الكامل.. ولاريب في أنّ مصداق هذه المرأة هو بنت نبيّنا الأعظم صلوات الله عليه وعليها وآلهما الطاهرين.. ولكن المسألة هي أنها سيدة وليست رجلاً... غير أنّ هذا لا يعني أنّ نيل المقام المذكور حكر على الرجل وإنّ جنس المرأة عاجز عن ذلك؛ أو لا يصحّ لها ذلك.[1] ومن هنا، كانت الحجيّة والاعتبار المعهود لقول وفعل وتقرير الأئمة المعصومين عليهم السلام سارٍ أيضاً لهذه الصديقة المرضية عليها السلام..

إن نظرتنا وعقيدتنا نحن الشيعة تجاه المعصومين عليهم السلام، ومن جملتهم سيدة النساء الصديقة الزهراء عليها السلام، باعتبارهم مصاديق جليلة للإنسان الكامل.. هذه السيدة ـ وبناءً على نصوص الأدعية والزيارات الواردة فيها ـ أنها قد امتحنت من قبل الله عزّوجلّ قبل أن يخلقها.. ذلك الامتحان الذي يعني تأهيلها لما أنيط بها من المنازل والفضائل والمناقب والمقامات.. ولهذا بيانٌ معرفي تفصيلي ..

ولذا كانت منزلة السيدة الزهراء عليها السلام وفضيلتها ـ ضمن دائرة معتقداتنا الرئيسية ـ ذات مرتبة سامية واستثنائية فذّة، نظراً لأنّ هذه المرأة التي خلقها الله تعالى وجعلها سيدةً لنساء العالمين وأولاها مقام العصمة الأرقى.. قد أوكل لها مقام الحجية حتى على أبنائها المعصومين عليهم السلام.[2]

---

١. نفسه، الطباطبائي، ج ١٦، ص ٣١٢.

٢. عوالم العلوم، ج ١١، ص ١٠٣٠.. قال الإمام العسكري عليه السلام: «نحن حجج الله على خلقه، وجدتنا فاطمة حجة الله علينا».

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

فمن كان له هذه الخاصية، لابد أن يكون مميزاً جداً وبما لا يُتصوّر. ورغم أن هذا المعتقد الخاص بنا قائم على اَساس مباننا النقلية والعقليّة ذات الصلة بالصديقة الزهراء والأئمة المعصومين عليهم السلام، اِلّا أنّ أصل اعتقاداتنا بخصوص المقامات والكمالات المعنوية للمعصومين، ومنهم السيدة الزهراء غير ناشئة عن الاستنتاجات التاريخية اِزاء هؤلاء العظماء، بل هو بحث مستقلّ ومعتقد محدّد سلفاً، رغم أنّ بعض الخصائص التاريخية والانسانية المقرّرة لها ما نستشعر من ذلك، إلّا أنّ أصل الموضوع مجرد عن البعد التاريخي..

مرحلة مكّة

العمر القصير لبنت نبي الإسلام كان له ثلاث مراحل متمايزة: المرحلة الأُولى خاصة بمكة المكرّمة. والمرحلة الثانية خاصة بالمدينة المنورة اِلى حين ارتحال النبي صلى الله عليه وآله. والمرحلة الثالثة خاصة بالحوادث التي تلت ارتحال رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذه المراحل الثلاث وعلى رغم مشتركاتها؛ لها خصوصيات متفاوتة: القسم الأول: متعلق بمرحلة طفولتها.. لا سيما ما تلا رحيل أمّها الصديقة خديجة الكبرى عليها السلام. والقسم الثاني: متعلق بحياتها الزوجية واهتمامها بأولادها الكرام البررة. والقسم الثالث: ما يرتبط بتوجيهاتها الاجتماعية والسياسية والعقائدية لدى التنافس القبلي والحزبي وإحياء الميراث الجاهلي على مرّ العصور..

المعروف ـ تاريخياً ـ أنّ السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام قد ولدت في السنة الخامسة للبعثة.. مع أن روايات أخرى تعزو ولادتها اِلى قبل ذلك، ولكن بالنظر اِلى الأقوال والقرائن العديدة والمعتبرة تشير اِلى السنة الخامسة للبعثة سنةً لولادتها العظيمة.[1] وحسب النقول

١. الاصابة، ابن حجر العسقلاني، ج ٨، ص ٢٦٣؛ طبقاً للنقول التي اعتمدها ابن حجر وآخرون، فإن ولادة الزهراء عليها السلام كانت بعد خمس سنين من البعثة أو سنة واحدة. وعزا محسن الامين في (أعيان الشيعة) هذا الترديد اِلى اشتباه الرواة في إدراج كلمة (قبل أو بعد) (أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٠٧). ولكن قول المفيد الموافق للأحاديث التي نقلها الشيخ الكليني في (الكافي) يصرّح بالسنة الثانية والخامسة بعد البعثة (العُكبري، محمد بن النعمان المفيد، مسار الشيعة، ج ١، ص ٥٤)

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

المعتبرة، فإن السيدة خديجة عليها السلام قد ولدت الصديقة الزهراء عليها السلام في السنة الخامسة للبعثة وأنّها كانت آخر مَن ولدت.. كما أنّ هذه الألام العظيمة قد وقعت تحت تأثير جنينها القدسي في مرحلة الحمل، إذ كانت الزهراء تحدّث أمّها وهي في بطنها..[1]

وبغضّ النظر عن هذه الروايات.. فإننا على علم وما عرفناه عنها في حياتها في المدينة، أنها كانت في مرحلة طفولتها قد عاشت حياة استثنائية وشخصية طفولةٍ غير عادية.. ولا ريب أن حياة الزهراء في مكة قد تركت تأثيرها العميق والعظيم على والدتها الصديقة خديجة عليها السلام.

وصادفت سنة ولادة الزهراء عليها السلام تعاظم ضغط قريش على النبي صلى الله عليه وآله وعموم المسلمين بشكل متواصل، إلى حيث انتهى الأمر إلى ما يعرف بمحاصرة الموحّدين في شعب أبي طالب عليه السلام .. وهناك؛ وفي تلك الظروف القاسية؛ ولدت الصديقة الزهراء عليها السلام .. فكانت الزهراء عليها السلام صغيرة العمر وتنمو فيما ذوو قرابتها يعانون البغض وضغط المعيشة القاسية.. ممّا اضطر بعضهم ـ تحت تصاعد الضغط والعداء،[2] الأمر الذي حدا بالقرشيّين المشركين إلى تضييق حلقات المحاصرة الاجتماعية والاقتصادية على بني هاشم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله من جملة المحاصَرين الذين استمرت معاناتهم الشديدة جداً ما يقرب من ثلاثة أعوام (من السنة السابعة للبعثة وحتى السنة العاشرة). وكانت الغاية من هذا الحصار الاقتصادي والغذائي تركيع صاحب الدعوة وذوي قرابته المؤمنين.[3] وكانت نتيجة ذلك أنّ ضحى الدين الجديد بشخصين عظيمين، وهما أبوطالب عمّ النبي، وخديجة الكبرى زوجة النبي في آخر سنة من الحصار الظالم.. فكانت سنة الحزن والأسى والعزاء،[4] تبعاً لما أصابهما وغيرهما من ضعف بدني شديد..

---

١. ارشاد القلوب للديلمي، ج ٢، ص ٣٩٤.

٢. تقرير من الهجرة الأولى في سيرة ابن هشام (ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٣٢١).

٣. نفسه، ص ٣٥٠؛ الطبري، ابن جرير، تاريخ الأمم والرسل والملوك، ج ٢، ص ٧٨.

٤. أعيان الشيعة، محسن الأمين، ج ١، ص ٢٣٥.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

والقضية الأساس فيما نذهب إليه، أنّ السيدة الزهراء عليها السلام قد عانت اِذ ذاك حياة مريرة، مضافاً اِلى مشاهدتها الواقع العسير الذي كان يعانيه ويشهده أبوها رسول الله صلوات الله عليه وآله، مما كان يضاعف ألمها الروحي وضعفها البدني، لا سيّما لدى استشهاد والدتها وعمّها.. بمعنى أن المسألة لم تكن مجرد قلقها تجاه سلامة والدها الرسول، فقدها لأمّها الشهيدة وعمها الصدّيق الشهيد أبي طالب عليهما السلام في (عام الحزن) ذاك[1] وفي تلك الفترة العصيبة لم يكن اِلى جانب الرسول غير فاطمة وعلي سلام الله عليهما.. فيما كانت الضغوط المتتالية تزداد شدة وعسراً.. ولقد تواصل الأمر هذا حتى بعد فكّ الحصار الظالم والعودة اِلى مكة، ثم الهجرة اِلى أرض المدينة..[2] وهنالك اتّخذت مولاتنا الصدّيقة دور الأمّ في التخفيف عن معاناة والدها النبي حتى أطلق عليها لقب (اُمّ أبيها)... وهو اللقب الشريف الذي كان خاتم الأنبياء يناديها به..[3]

وكانت السنون (١٠-١٣) من البعثة سنين مضيئة للغاية، إذ رام مشركو قريش يصرّون على تصعيد أذاهم وعنادهم وبغضهم وحربهم ضدّ النبي والمسلمين.. وإذ ذاك؛ استعاض صلى الله عليه وآله عن خديجة وأبي طالب بالزهراء وعلي سلام الله عليهم أجمعين .. حتى أنه روي أنّ بعض زعماء المشركين أمروا غلاماً لأحدهم أن يرمي بأمعاء جمل على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد يصلّى لله تعالى.. اِلى الحدّ الذي حمل أباجهل اللّعين على الضحك حتى سقط على قفاه.. ولم يكن أحد من الناس يتجرّأ على رفع تلكم القاذورات عن رأس النبي.. اِلى أن جاءت الصديقة الزهراء الى المسجد وأزاحت عن رأس النبي ما وقع عليه ونظّفته.[4]

ومع أن التأريخ لم يذكر الشيء الكثير من طبيعة الحياة الأسرية للنبي صلى الله عليه وآله بعد الخروج من شعب أبي طالب، ولكن بالنظر اِلى ظروف تلك الفترة يمكن القول؛ بل ويتأكّد، اِنّ

١. أنساب الأشراف، البلاذري، ج ١، ص ٢٣٦؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.
٢. تاريخ اليعقوبي، نفسه، ص ٣١.
٣. الارشاد، للمفيد، ج ٢، ص ٢٤٤.
٤. أنساب الأشراف، للبلاذري، ج ١، ص ١٢٥.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

الصديقة الزهراء عليها السلام كانت أهمّ سبب في التخفيف عن معاناة والدها النبي، مما أعطاها مصداقية أكبر في أن تكون (أم أبيها)[1] على مستوى الحنان والشفقة على الأقل، ناهيك عما يتضمّن هذا اللّقب الشريف من مضامين عقائدية عميقة جداً..

مرحلة المدينة

كان للزهراء عليها السلام ثمان سنين فى العمر حين هجرتها اِلى المدينة، اِذ دخلتها بعد أيام قلائل في توقّف النبي عند حدودها منتظر قدوم علي عليه السلام والفواطم الهاشميات.[2]

ولقد اَضحى النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله الشخص الأهمّ بعد دخوله فيها.. وصار ذا المكانة الأرقى بمرور الأيامِ وتعاقب الأحداث.. مما كان يتسبّب بمشاكل كثيرة للمقرّبين من النبي، أعني: أسرته الصغيرة بشكل غير مباشر.. ومن ذلك؛ قضية زواج الصديقة الزهراء المرضية عليها السلام ...

أهمّيّة الزواج

اقترنت الزهراء بعلي عليهما السلام وكانت فتاة يافعة، ولكن زواجهما لم يتمّ ببساطة، وذلك أن الزواج في تلكم الحقبة كان ذا أهمّيّة كبيرة لما له من تبعات أمر أسباب في العلاقات السياسية والاجتماعية.. ولطالما كان الكثيرون يحرصون على بناء وتكريس العلاقات مع أفراد وقبائل عن طريق الزواج.. ونظراً لمكانة النبي صلى الله عليه وآله العظيمة ـ كما اتّفقت عليه الروايات ـ وما كان يتوقّع له من مستقبل، فقد تقدم لخطبة الزهراء عليها السلام الكثير من الأفراد.. وكان منهم ـ أو في مقدّمتهم ـ أبو بكر وعمر اللذان زادا من إصرارهما على تحقيق ما يريدان، ومعهما غيرهما ممن تقدم لذلك؛[3] مما أخرج النبي لدى ردّهم والإعراض عنهم حتى اضطرّ اِلى التصريح في نهاية الأمر بأن زواج فاطمة عليها السلام متوقّف على أمر الله ووحيه

١. مناقب الإمام علي بن أبي طالب، ابن المغازلي، ج ١، ص ٢٧٨؛ مقاتل الطالبيين، ابو الفرج الإصفهاني، ص ٥٧.
٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤١؛ إعلام الورى، للطبرسي الفضل بن الحسن، ج ١، ص ١٥٤.
٣. منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان. المناقب، لابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٣٤٥؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢٢٨.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

وإرادته.. وأن أمر زواجها خارج عن إرادة شخصه،[1] ثم إنه بعد ذلك ـ في أواخر السنة الثانية للهجرة ـ وقع زواجها بعلي عليه السلام .. القرين الكفء الوحيد لها عليها السلام .

وهذا الموضوع بحدّ ذاته أدّى إلى مشكلة ليست بالبسيطة وباحراج شديد في المجتمع المديني إذ ذاك، لا سيما بدافع الحسد والبغض لعلي عليه السلام ؛ وهو الحامي والمدافع الأكبر عن الرسول والرسالة.. وكانت الزهراء عليها السلام عارفة بكل ما يعانيه علي ـ فضلاً عن مشاق الجهاد والمعارك ـ رغم أنه لم يكن ذلك الرجل الذي يلقي بهمومه الشخصية وينقلها إلى الجوّ الأسري.

سلوك النساء

من المشاكل الجادّة في تلك البرهة التي كان الجو الأسري للنبي يعانيها ـ ولأسباب تبحث في مظانّها[2] -أن النبي كان لها زوجات عديدة، وكنّ يعشن في مجتمع المدينة الصغير وإلى جانبه صلى الله عليه وآله ، وبطبيعة الحال كان البعض منهنّ يثرن صراعات مردّها إلى ضعف الإيمان والشخصية؛ وربما عدم الإيمان والإسلام باطناً، مما كان يتسبّب في مشاكل عصيبة، بل إنّ منهنّ من كنّ يواجهن النبي بصلافة ووقاحة.. وقد أشارت آيات وسور قرآنية إلى ذلك، مثل سورة التحريم وسورة الأحزاب. وأسباب صور ذلك الصراع ذكرت في محلها.[3] ومنهنّ من كنّ يحسدن بنت الرسول سيدة نساء العالمين.. حسداً سرى إلى زوجها وأولادها واستمر إلى أجيال وأجيال.. وكانت المكانة الخاصة للزهراء عليها السلام أمراً مستهدفاً على الدوام من قبل بعض نساء النبي ـ وبالذات عائشة وحفصة بنتا أبي بكر وعمر ـ تجلّى وتأكّد في الحرب على حكومة أمير المؤمنين وتشييع جنازة الإمام الحسن عليه السلام ..

وكان من أسباب هذا الحسد والعداء؛ انحرافهنّ عن الإيمان وعدم انجابهنّ للذرية واعمارهنّ المتقدمة؛ باستثناء أم المؤمنين مارية القبطية رضوان الله عليها التي انجبت

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ، الصدوق، ج ١، ص ٦٤؛ ينابيع المودة للقندوزي، ج ٢، ص ٦٧.
٢. تحولات عصر معصومين، محمد طاهر رفيعي (تحت الطبع)
٣. نفسه.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

للنبي صلى الله عليه وآله إبراهيم عليه السلام الذي توفّى بدوره وهو طفل صغير جداً.[1]

ولكن فاطمة الزهراء عليها السلام كانت البنت الوحيدة للنبي في أيامه في المدينة.. ثم انها انجبت سادة أهل الجنة بعد تسعة أشهر من زواجها. وكانت حاملاً بطفلها الخامس ـ بعد الإمامين الحسنين والسيدتين زينب وأم كلثوم عليهم سلام الله ـ فاستشهد النبي صلى الله عليه وآله ثم أسقطته ضمن حوادث أليمة وفجيعة متتالية...

والأمر الأهمّ أيضاً أن النبي قد جعل فى ذرية الزهراء أبناء له وأولاهم مالا يوصف من محبة وشفقة واجلال في جميع المواقع.. مما كان يزيد من حسد بعض تلكم النسوة ضعيفات الدين.[2] وحيث أن من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليتصرّف عن هوىً نفسي ورغبة عاطفية بعيدة عن التوجيه الإلهي المباشر باعتباره نبياً لا ينطق عن الهوى.. ولكن شيطان البغض والحسد وقلّة أو انعدام الايمان في قلوب المناهضين لآل البيت عليهم السلام قد فعل فعلته، حتى اختطّ لنفسه مساراً رهيباً في طرد الأجيال المتلاحقة عمّا أراد لهم الله من حبّ وايمان وتمسك بآل البيت النبوي الشريف.

ومن نماذج ذلك الحسد والبغض، أنّ النبي قد كان إذا ما ذكر زوجته الأولى السيدة خديجة عليها السلام بخير.. أُثيرت حفيظة البعض فى زوجاته وصدر عنهنّ ما لا يتطابق الايمان والسلامة النفسية أبداً؛[3] متجاهلات أو جاهلات بأنّ ما كان يصدر عن النبي تجاه زوجته الأولى العظيمة إنما بدليل تضائلها وعظيم إيمانها وسلوكها ووفائها وتضحياتها.. عسى أن يتّخذن من ذلك أُسوة؛ فينهضن بأنفسهن إلى الخير والإيمان..

مجتمع المدينة

رغم تلكم الخصائص والأوصاف، فإن طبيعة السلوك النبوي تجاه السيدة الزهراء عليها السلام لم يكن لمجرد إرادة التغيير في رأي المجتمع المديني تجاه المرأة، وانما كان يستهدف

---

١. الاستيعاب، ابن عبد البر، ج ١، ص ١٢ و ١٩؛ أنساب الاشراف، البلاذري، ج ١، ص ٤٤٩.
٢. شرح نهج البلاغه، ابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٩٨.
٣. أُسد الغابة، ابن الأثير، ج ١، ص ٨٤؛ بحار الانوار، ج ١٦، ص ٣.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

المحيطين بالأسرة النبوية التي لم يكن بعض أفرادها ممن تأصّلت فيهم النظرة السلبية ـ المنافية للوعي والإيمان ـ تجاه المرأة .. ولكن كلّ ذلك الجهد النبوي لم يكن ليحظى بقبول هؤلاء وتحمّلهم، بل إنّ بعضهم تطاول واعترض واستهزأ.[1]

فالقضية لم تكن مجرّد محبة نبوية لابنته الصدّيقة.. حتى لكأنّ ملاطفة وشفقة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله إزاء أحفاده، لا سيّما الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لم تكن لتحظى بقبول وتحمل أولئك الأوغاد ذوي القلوب القاسية والعقول المتحجّرة والأرواح الشريرة؛[2] والحال أنّ السلوك النبيّ بهذا الصدد كان يتضمّن وجهين، أحدهما: أنّ الحسنين عليهما السلام كانا ابناءً غير عاديين. والثاني: أن حبّ المرء لأبنائه يجد شطراً مهماً جداً من الأخلاق الدينية الراقية[3] التي لم تنفذ بعد إلى نفوس جيل ذلك الزمان..

ومثال ذلك؛ أنّ إبراهيم ابن الرسول الذي توفّي طفلاً صغيراً.. وتركت وفاته أثراً كبيراً في مشاعر أبيه النبي صلى الله عليه وآله حتى بكى عليه.. وجدنا بعض الصحابة قد أشكل وعاب عليه... مما اضطرّه إلى القول: «إنّ القلب ليحزن، وانّ العين لتبكي [لتدمع] ولا نقول إلا ما يرضي الربّ»[4]

والحقيقة هي أنّ تلك المشاعر الجاهلية البليدة، كانت طافحة لدى أعراب تلك الحقبة الزمنية، كما كانت متأصلة في كل مجتمع آخر، حيث التقاليد والآداب والمعايير والنظم الأخلاقية البعيدة عن النُبل والفضيلة.. وكان هذا بمثابة أمرٍ طبيعي في مجتمعات بعيدة عن إرادة وعبادة ربّها.. وكان واقعها المرير هذا متفاوتاً مع المنطق والسلوك النبوي الرائع.. ولم يكن مقدور النبي صلى الله عليه وآله إحداث تغيير نفسي وأخلاقي شامل وإصلاح سريع في ذلك المجتمع..

وبغضّ النظر عن الثقافة الحاكمة إذ ذاك، فإنّ ثَمّ عوامل نفسية ومواقف شخصية

---

١. ذخائر العقبى للطبري، ج ١، ص ٣٦؛ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٧ و ٨١ و ٢٣٩.
٢. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ٥٢، ص ٣٢٤. تاريخ بغداد، البغدادي، ج ٢، ص ٢٠١.
٣. الكافي للكليني، ج ٦، ص ٥٠.
٤. فقال النبي: «تدمع العين ويوجع القلب ولا نقول ما يسخط الرب». تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ٤٣، ص ٥٥٩.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

كانت لها مدخليتها في هذا الشأن .. فهؤلاء لم يكونوا ليعوا شيئاً من مقام الزهراء الحقيقي ليتسنّى لهم اِدراك بعض المنطق والسلوك النبوي تجاه هذه الصدّيقة العظيمة.. ولم يكن هذا الواقع المرير حكراً على نساء النبي، بل اِنّ مجمل نساء المدينة لم يكن ليعين ويتحمّلن ذلك..

وثَمّ روايات كثيرة تَحكى عن اعتراض نساء النبي عليه فيما يرتبط بعظيم إجلاله لابنته الراضية المرضية.. مما كان يضطرّه صلى الله عليه وآله اِلى اِيضاح الأسباب لهنّ.. بل اِن بعض الصحابه لدى اعتراضه كان يكشف للنبي بأنه لم يقبّل صغاره في حياته قط.[1] هذا حين كان النبي يقبّل الحسنين ويلاعبهما عليهما السلام. وكان ذلك؛ في الوقت الذي يجهل فيه عموم الناس جدوى الشفقة على الأبناء الذكور؛ ناهيك عن البنات الإناث.. كما أنّ صفة الكرم والجود والسخاء في تلكم الأيام لم تكن ناشئة عن الرحمة والعطف والتكافل الإجتماعي بقدر ماهي نابعة عن استعراض الرجولة والسطوة.. وهكذا كانت الثقافة الجاهلية الحاكمة..

في خضم ذلك؛ كانت إثارات نساء النبي نابعة عن مواقف الرجال الجاهلية.. وهناك من النماذج الكثيرة ما يؤيد هذا المطلب.. مع أنهم في أحيان كثيرة كانوا يعجزون عن إظهارها، ولكنها تبقى قابلة للإنكار، فهي متكرسة في قلوبهم المتحجرة والقاسية على الأقل.. كما كشفت الحوادث التي تلت أيام رحيل النبي صلى الله عليه وآله.. وهكذا كانت مصاعب ومصائب الصديقة الزهراء آنذاك، وهي نتائج تلك المشاعر السلبية المتطرفة والمضادة الصادرة عن جماعة الصحابة تجاه أهل البيت النبوي، وفي مقدمتهم؛ الصديقة الزهراء عليها السلام.[2]

والمثال الواضح لذلك: سلوك عمر تجاه النساء اللآتي بكين لوفاة أبي بكر وخالد بن الوليد، اِذ منعهنّ وأهانهنّ وضرب بعضهنّ بالسوط. فكان موقفه تجاه ذلك موقف طبيعي جداً يتناغم وموقف أعراب تلك الحقبة تجاه المرأة عموماً.

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٩٥.

٢. أنساب الأشراف، البلاذري، ج ٣، ص ٦١؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٥.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

ولا ريب في أنّ اَحد الأهداف النبوية من اِظهار المحبة العلنية تجاه ابنته وأحفاده ليربي جيل زمانه ثم الأجيال التاليه كيف ينبغي أن يكون الموقف والسلوك تجاه النساء والأطفال.. ويبدو أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كان يحرص على إنشاء محبته وعطفه في الملأ العام، ليشهد الناس ذلك عن قرب؛ فيتربوا على هذه الشاكلة..

فراق الأب

أشار النبي صلى الله عليه وآله خلال حجّة الوداع في خطبته بمنى اِلى أنه سرعان ما سيفارق الحياة.. وقد مرض صلوات الله عليه وآله قُبيل رحلته رضاً لم يكن شديداً، ولكنه أخذ بالاشتداد شيئاً فشيئاً، وكان ذلك مستشعراً من قبل اَهل بيته ولا سيّما السيدة الزهراء عليها السلام.

وكان فراق الأب النبي أشدّ وقعاً على ابنته الوحيدة، خصوصاً أنّ هذا الأب العظيم هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، هما أثار كل القلق فيها.. وهذا ما يُعدّ أمراً طبيعياً، ولكن المثير في الأمر ما كانت تتوقّعه من مصائب ستواجهها بعد وفاة الأب الرسول.. علماً أنّ الحسد والبغض لها ولزوجها ولأولادها لم تكن ملامحه تظهر أثناء حياة الوالد الرسول بالشكل الكبير، ولكنه ـ الحسد ـ سيضرب ضربته بعد الاستشهاد النبوي..

..ونقلت عائشه أنّه لدى اشتداد مرض النبي كانت ابنته واقفة أو جالسة اِلى جانب فراش أبيها وهي تبكى الهوينا.. فكشف لها أنّه سرعانِ ما سيرحل من الدنيا، ممّا زاد وضاعف في بكائها.. ثم إنه صلى الله عليه وآله همس لها بجملات لم أتمكن ـ عائشة ـ من سماعها.. ولكنها ـ فاطمة عليها السلام ـ راحت تبتسم، مما أثار تعجّبي .. ثم إنني أقسمت عليها أن تخبرني عن بكائها ثم ضحكها وابتسامتها.. فقالت: بكيت لوفاة أبي، ثم ضحكت لإخباره إياى بأنّي اَوّل من سيلحق به من أهل بيته...

وكما قيل؛ فإن شطراً من ذلك القلق والاضطراب الفاطمي كان بداعي الظروف المستجدّة المتوقعة لما بعد مصيبة استشهاد النبي أبيها صلى الله عليه وآله، وقد كانت سيدة نساء العالم أعرف من أيّ أحد بما سيحدث وكيف سينتقم الناس من زوجها أمير المؤمنين عليه السلام .. وهكذا هو الذي حدث ليفعّلوا حسدهم وبُغضهم لآل البيت عليهم السلام، وليفعّلوا أيضاً نظرة الازدراء

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

العديدة لعموم المرأة والأطفال.. تلك النظرة والثقافة التي طالما حاربها الرسول والرسالة السماوية..

والقضية المثيرة هي أنّ ذات الصديقة الزهراء عليها السلام لم تكن ذات مدخلية في طبيعة الصراع بين ثقافة الجاهلية وثقافة السماء بخصوص الموقف فى المرأة، وإنما وجدت نفسها قد وقعت فيها وراحت ضحية لها.. هذا بالإضافة اِلى استشعار واجب الوقوف والتصدّي بكل إصرار وتحمل وصبر لمواجهة جميع المشاكل والمصاعب والمصائب..

ومن الطبيعي أن فتاةً وامرأة بعصمة وعبقرية وذكاء فاطمة الصديقة عليها السلام أن تعي جميع الأسباب والعوامل الخفية والمعلنة اِلتى أدّت اِلى الاعتراض على السلوك النبوي معها، ولكنها اختارت الصمت بجلال ولم تصدر عنها ردّة فعل.. فروحها المقدسة السامية كانت توعز طعنات البغض والحسد لها ولأهل بيتها إلى الجهل والغباء والحقارة، اِذ كانت تمرّ عليها مرور الكرام.. وليس فى نقل تاريخي أنّ لفاطمة الزهراء عليها السلام موقفاً أو ردّة فعل سيئة أبدتها لنساء النبي أو بعضهنّ، رغم كل معاناتها منهنّ.. وإنّ هذا الأمرُ في غاية الأهمّيّة من مجمل سلوكها المتعالي والسامى المعروف لسيّدة نساء العالمين، مما يشير اِلى خصائصها و ميزاتها الفذّة.. في حين أنّ من نساء النبي من كانت بينهنّ الاختلاف ولعلّ منهنّ من كنّ يسئنَ الأدب مع شخص رسول الله صلى الله عليه وآله ويؤذينه، رغم ما حظين بموقع متميّز فذّ، ورغم النعمة الكبرى المحيطة بهنّ بزواجهنّ من أشرف مخلوق..

ففي تلك الدائرة النسائية، قلّ أن تبدي واحدة منهنّ سلوكاً طيّباً تجاه ابنة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، إلّا أنّها عليها السلام لم تتعال على واحدة منهنّ تحت مدّعى كونها ابنة النبيّ القائد الزعيم، أو أنّها أفضل منهنّ ـ وهو الواقع الأكيد ـ أو أن تصدر عنها ردّة فعل موازية تجاههنّ.. فقد تحملتهنّ إساءاتهن بكلّ صبر وحلم، وكانت ـ وهي سيدة العصمة والعلم ـ ترى مسؤوليتها الكبيرة في إحقاق الحق وإيضاح جادة الهدى والرشاد بأفضل وأبهى صورة..

ومسألة أخرى ذات صلة ببنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي أنّ جميع المرويات تشير اِلى جلال قدرها عليها السلام حيث كانت معصومة منزّهة عن حسد أو حقد أو رغبة في انتقام ورغبة

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

في إلحاق سوء بأحد أو كشف مستور خاصّ بأحد، فهي الطاهرة الطهرة المطهّرة التي لا يصدر عنها إلّا الخير والصلاح.. على عكس ما تناقله المسلمون بإجماعهم عن بعض نساء النبي صلوات الله عليه وآله ممن هنّ بعيدات عن العفّة في الكلام والفعل وغير ذلك مما كان يوجب أذى الصديقة الزهراء عليها السلام.

ومن المناسب هنا ذكر نموذجين عن طبيعة المشاكل بين اَزواج النبي..

النموذج الأوّل؛ راجع اِلى قصة السيدة مارية القبطية.. اِذ ما أن دخلت حياة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى اَثار دخولها حفيظه بعض أقرانها، حتى اضطرّ النبي اِلى إسكانها في خارج المدينة.. وبعد ولادتها إبراهيم عليه السلام زادت وتيرة الحسد فيهنّ، ولقد كانت أول مَن توفّيت من نساء النبي وهي شابّة في مقتبل العمر تبعاً للضغوط الروحية والنفسية التي عرّضها لها..

والنموذج الثاني؛ ما يرتبط بحكاية اَم حبيبة أخت معاوية، فهي لدى مقتل محمد بن أبي بكر رضوان الله عليه واستشهاده بتلك الهيئة المفجعة، اَرسلت اِلى قرينتها عائشة ـ أخت محمد ـ ضأناً مشوياً تبارك لها مقتله وتُعرب عن فرحها بتلك المصيبة، وذلك أنّ محمد بن أبي بكر كان ربيب اَمير المؤمنين علي عليه السلام ومِن شيعته المقرّبين والموالين الأكثر إخلاصاً، كما كان عامل الإمام عليه السلام في أرض مصر، وقد انتهى على أخته عائشه في معركة الجمل بعد أن وجّه إليها سهام اللوم والانتقاد الحق..

أما عائشه؛ فقد اضطربت وتعجّبت من فعل أم حبيبة ونعتتها ببنت الباغية وأقسمت أنها لن تأكل بعد ذلك المشوي من الضأن.. وإنّ مثل هذه النماذج لكثير. وهي كاشفة عن مدى الاختلاف والصراع والتحاسد والتباغض البعيد عن الإيمان وسلامة النفس فيما بين نساء النبي من جهة، و ما يصدر عنهنّ اِزاء بنت النبي من جهة أخرى..

وما تمّ بيانه اِلى هذا الحدّ؛ كانت عبارة عن المشاكل التي كانت الزهراء عليها السلام تعانيها في حياة النبي صلى الله عليه وآله.. ولكنّ الوقائع ذات الصلة بما بعد استشهاد النبي ومصيبة السقيفة المشؤومة اِلى حين استشهادها عليها السلام جديرة بالتأمّل، وفيها من الكثير من النقاط والقضايا، ونشير إليها هنا بالإجمال.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

بعد النبي صلى الله عليه وآله

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ مسألة أخرى تعود إلى آلام ومشاقّ الزهراء عليها السلام، وهي ليست عائدة بالضرورة إلى البيعة الإجبارية الملازمة لتهديد الإمام علي عليه السلام والدفاع عن زوجها المظلوم.. وإنما أجواء المدينة الصغيرة لم تعد قابلة للعيش من جهتها، سواء من حيث بيئة الأسرة النبوية، أو من حيث الارتباط ببعض الصحابة الانتهازيين.. فالإمام قد ظلم حتى بعد استشهاد زوجته واعتماده سياسة السكوت [بمعنىً من المعاني].. وقد تعمد الناس آنذاك تجاهله والتنكّر له.. والأمر عائد إلى موضوع قد تمّت الإشارة إليه سلفاً. وإنّ من الخطأ التصوّر أنّ مسألة البغض والتجاهل عائدة إلى قضية خلافة النبي صلى الله عليه وآله.. خصوصاً وان مجتمع تلك الحقبة لم يكن ليتقبّل الإمام وأهل بيته بدلائل جمّة مرّت الإشارة إليها..

وفي الوقت نفسه؛ أنّ المصونية النسبيّة النابعة من كونها امرأة وأنّها الذّكرى الوحيدة التي بقت بعد رحيل النبي، كانت الزهراء هي القادرة على أداء الرسالة بما ليس علي عليه السلام قادراً على القيام به تبعاً لتمكّن الجهة المعادية ـ المنافقة ـ من تصفيته وقتله بسرعة بعد أن تثمر جهوده عليه السلام.

الإبلاغ والتذكير

بعد أن بايعت جماعة أبابكر خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله.. جاء الدور لمسألة المعارضة والمعارضين، أي أنّ الذي لم يوافقوا على هذه البيعة، وعلى رأسهم بنوهاشم، ومع أنّ العباس عمّ النبيّ كان كبير بني هاشم سنّاً، إلّا أنّ الدور الاجتماعي والأسري والسابقة الدينية كان أمير المؤمنين عليه السلام أبرز منه، لا سيّما وأنّه صهر النبيّ.. فأضحى الإمام على رأس المعارضين.[1] وكذلك بالنظر إلى موقع السيدة الزهراء عليها السلام، فقد أضحت المعارضة تدور بمجملها على محور الزهراء.. ويمكن القول أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، وبالاخص السيدة الزهراء كان لهما الدور الأكثر تميّزاً واستثناءً في عمليّة المعارضة.. ولهذا؛ فقد انطلق محبّو السقيفة المشؤومة نحو بيت أمير المؤمنين عليه السلام.. ولذلك قصة أليمة ومفصّلة للغاية.[2]

---

١. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج ١، ص ٢٨؛ تاريخ الامم، الطبري، ج ٣، ص ٢٠٨.

٢. الهجوم على دار فاطمة، مهدي عبد الزهرة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

وتارة يتعرض المجتمع أو جزء منه اِلى الاضطراب والقلق والانكسار، الأمر المؤدّي اِلى عدم تفكير افراده بعواقب أفعالهم.. وفي تلك الحقبة في المدينة كانت حاشية أبي بكر جميعاً قد استولت عليهم حالة غضب وهياج وعناد. وقد غفلوا أو تغافلوا عن وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحتى أصلَ المشورة، ولم يكونوا ليسمعوا لقول الحقّ والعقل.. واصرّوا على الذهاب في طريقهم اِلى نهايته.. ومثل هذا الحال يمكن أن تشهده مختلف المجتمعات، كما وقع ويقع على الدوام..

في تلك الأيام كانت لحاشية أبي بكر ورهطه مثل هذه الحالة المُزرية والشاذّة، وليس أنهم كانوا لا يعون الواقع.. حين كان أمير المؤمنين والصدّيقة الزهراء عليهما السلام يذكرونهم الحقائق واَشكال الصّواب والحقّ بخطبهما ونداءاتها ويذكرانهم بالوصايا النبوية.. فهم كانوا يتذكّرون كل ذلك، ولكنّهم لم يكونوا ليهتمّوا بالاهتداء اِلى طريق الصواب وتمييزه عن طريق الباطل.. لأنّ هذا الاهتمام المشار إليه إنما يكون حين يستمع الإنسان اِلى حديث العقل.. ويحاول الالتزام بمعايير العقل ويكون مستعداً روحياً ونفسياً لقبول ذلك..

ولدى الظروف التي لا يكون المجتمع مستعدّاً للاستماع، ينبغي الاكتفاء بالقدر الأقلّ من المقاومة. ولذا؛ فلو كان امير المؤمنين عليه السلام يريد الكلام بأكثر من الحدّ المطلوب أو يبذل أكثر من الفعل والجهد المتوقّع، لكان قُتل قطعاً، وذلك أنّ أفراد العدو قد أطلقوا تهديدهم وهم عازمون على تنفيذ قتلهم إياه على سبيل القطع.. وهكذا لم تكن يده عليه السلام مبسوطة لبيان الحق ولإبلاغ صوته اِلى الأجيال التالية وإيضاحه اَصل القضية وحقيقة الأمر لهم.

وهكذا وفي هذا الجزء كان دور الصديقة الزهراء عليها السلام اَكبر وأسنى من دور اَمير المؤمنين عليه السلام، وأنّ الفعل الذي كانت قادرة على إنجازه لم يكن هو بقادر على القيام به. وذلك أنها ـ فضلاً عن كونها بنت النبي صلى الله عليه وآله ـ كانت امرأة وزوجة له، ولو أنّ النبيّ كان له ولد ذكر بدلاً عنها.. ثم قام هذا الابن بما قامت هي به للدفاع عن امير المؤمنين عليه السلام؛ لقتل قطعاً.. وحتى في ظلّ ما يطرح من شعارات تنادي بالمساواة بين المرأة والرجل، فإنّ للمرأة حصانة أكبر ..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

وإن التاريخ ليحدّثنا ضمن مأساة سبي نساء أهل البيت عليهم السلام وأسرهنّ وسوقهنّ من كربلاء إلى الكوفة ومبادرة السيدة زينب عليها السلام إلى إهانة ابن زياد في مجلسه العتيد.. إذ عزم هذا الأخير على قتلها.. إلّا أنّ رجال حاشيته منعوه من ذلك قائلين: إنها امرأة، والنساء لا يقتلن.[1] وثمّ مصاديق عديدة بهذا الصدد، يمكن تتبعها في المصادر التاريخية والثقافات المختلفة يمكن إحصاؤها وتدوينها..

والمقصود هنا، أنّ أكثر ما كان يمنح الصديقة الزهراء عليها السلام هو أنّها كانت امرأة، وكان هذا يمثّل العامل الأهمّ في تمكّنها من إيراد خطبتها العصماء في المسجد النبوي في المدينة، ولقد واجهت فيها أبابكر وبكل صراحة وحدّة.[2]

هذا في حين أنّ الظروف العصيبة لم تكن لتسمح بالقاء ذلك الخطاب حتى من قِبل شخص رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا لا يعني كون الزهراء عليها السلام أكثر أهمية وفضلاً من أبيها النبيّ المصطفى صلوات الله عليه وآله، وإنما هي منزلة المرأة قد منحتها القدرة على هذا النوع فى المواجهة والتحدّي.. فكان للسيدة الزهراء عليها السلام ما كان له من دور في بيان الحق والحيلولة دون الوقوع في الشبهات في تلكم المرحلة.. دور ما كان لأحد من الرجال أن يؤديه؛ بمن فيهم أمير المؤمنين عليه السلام نفسه..

وبين هذا وذاك؛ رأينا سيدة نساء العالمين قد احتفظت بشخصيتها النسوية ولو اضطرّها ذلك إلى الحضور بنفسها في مجلس أبي بكر، إذ تمكّنت عليها السلام فى إبلاغ رسالتها، بما تضمّنت من ضرورة أن تبقى المرأة مرأة لاثبات شخصيتها ككائن إنساني وإيضاح حقّها وعقيدتها.. ولا مبرّر لأن تنسلخ عن ذاتها ومظهرها أو تتقمّص شخصية الرجل التي لا تغني ولا تسمن من جوع بالنسبة للمرأة في كثير من الأحيان.. ناهيك عما قد يلحق بما من أضرار فادحة.

عدم الانحراف عن الجادّة

عادةً ما تطرح المسائل التي تلت رحيل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فيما يرتبط بالخلافة بشكل،

---

١. تاريخ الامم، الطبري، ج ٥، ص ٤٥٨؛ إعلام الورى، للطبرسي، ص ٤٧٢.

٢. بلاغات النساء، ص ١٨؛ السقيفة وفدك، احمد بن عبد العزيز الجوهرى، ص ١٤٠.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

وكأنّ ما قام به أهل البيت عليهم السلام آنذاك كان لمجرد استيفاء حقوقهم.. والحال أنّهم كانوا على علم مسبق بعدم إحقاق الحقّ أو ميل الناس إليهم.. والأمر هذا لم يكن ليستوجب علمهم بالغيب، إذ الظرف آنذاك كان يشير إلى ذلك تماماً.. فحينما يقال: «إن الرجل ليهجر»[1] لدى وصفهم إرادة النبي كتابة كتاب لا يضلّ الناس بعده عند قراءته والالتزام بمضامينه.. فإنّ من الطبيعي أن يمنع أهل بيته عليهم السلام عن خلافته..

وبعد واقعة السقيفة المشؤومة، كان معلوماً أنّ أمير المؤمنين وسيدة نساء العالمين عليهما السلام لن يستطيعا من قلب الواقع.. وإن الفرد البسيط كان يعي هذه الحقيقة.. وهكذا كان الكثير من أهل المدينة يصرحون بذلك لدى طلب الإمام منهم أن يعودوا عن بيعتهم الباطلة وغير الشرعية لأبي بكر، إذ كانوا يصرحون بأن الأوان قد فات،[2] أي أنه أصبح من المستحيل إعادة عجلة التاريخ حتى بالنسبة إلى وعي الفرد العادي، وأنّ الإصرار على التغيير سيؤدّي إلى الفوضى والحرب الداخلية الأهلية لا محالة، لا سيّما وأنّ كثيراً من المنافقين كانوا يتربّصون لهدم المجتمع المسلم.

وهكذا كان المؤكّد في الأمر استحالة عودة أو إعادة الخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام، لا سيّما بعد استشهاد الصديقة الزهراء عليها السلام، وقد تسلّط أبوبكر بصورة تامّة.. وهذا ما كان أهل البيت عليهم السلام يعونه حقَّ الوعي.. ولكنّ الأمر الأهمّ من كل شيء هو أن لا يضيع الحقّ ويغيّب تماماً.. فإن لم نتمكّن من إحقاق الحق ولم نتمكّن من نيله.. فلابدّ من إيضاح الأمر للأجيال اللاحقة .. وهذا ما ضحت السيدة الزهراء عليها السلام بنفسها لأجله فكان من الضروري أن تضيع ذكرى الرسول ـ الزهراء البتول ـ ويطفأ نورها بعد رحلة أبيها صلوات الله عليها..

ومن هنا؛ كان الأجدر بكل ذي حجى أن يقيّم الإنجازات التي قامت بها الصديقة الزهراء عليها السلام تقييماً واعياً قائماً على أساس إيضاحات أهل البيت عليهم السلام أنفسهم.. بمعنى ضرورة أن يتّضح أنّ مساعي الزهراء و إمساك أمير المؤمنين عليه السلام وامتناعهما عن بيعة أبي بكر.. ولا سيّما ـ خطوة ـ الخطبة الفدكية الزهرائية، لم تكن لإحراز السلطة والحكم، وأن

١. صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٤؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٢، ص ١٨٧.
٢. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج ١، ص ٢٩.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

يتسنّم الإمام زمام الحكم أو أن تعاد فدك اِلى مالكتها الزهراء ـ وهو حقهما قطعاً ـ إذ الظروف تغيّرت ولم يعد بالإمكان إعادة عجلة الحياة ـ حياة النفاق والظلم والاستبداد ـ ولكن الأهمّ في الأمر هو أن لا يُضلَّ الطريق ويقع الانحراف عن جادة الهدى بطرد الهداة.. لقد أضحت الاستراتيجية أن يبقى ثم نور يمكن التمييز به بين ما هو حقٌّ وما هو باطل..

و كان ذلك الإصرار من قبل الزهراء وأمير المؤمنين عليهما السلام للحيلولة دون استيلاء الشبهة على العقول.. ولإلقاء الحجة البالغة على الإجيال المسلمة بأنّ ما أحدثه المنقلبون على الأعقاب لم يكن محطَّ تأييد من أهل البيت عليهم السلام الذين هم رمز الحق والرشاد، وأنهم قد اعترضوا عليه رغم أنّهم لم يستطيعوا تغيير المسار الضالّ والظالم.. وذلك الاعتراض المتواصل هو ما كان يضئ الدرب لمن شاء الاستضاءة لبلوغ الرشاد.. ومثل هذه الحقائق هي ما يمكن استيحاؤه من طوايا مفاهيم الخطبة العلوية الشقشقية الشهيرة، ثم ممّا عكف الأئمة المعصومون اِلى الإمام الحسن العسكري عليهم السلام على تكريسه وتحقيقه (مع الأخذ بنظر الاعتبار التفاوت في ظروف الإمام الثاني عشر عليه السلام)؛ اِذ طالما حرصوا على اِرشاد الأجيال المسلمة بأنّ ما يعيشونه من أوضاع ظالمة وباطلة ليست هي المراد الدينى..

وهذا ما نلاحظه أيضاً في سيرة جميع الأنبياء والمرسلين، حيث لم يحرصوا على الاستيلاء على السلطة والحكم أبداً، و إنما اعتمدوا استراتيجية إنارة الطريق اِلى الهدى والخير، وفهم حقيقة العدل والتمييز بين الحق والباطل.. وهذه المسألة قد ورد الحديث عنها في معظم الأدعية والزيارات.. كدعاء الندبة الوارد فيه: «لئلّا يزولّ الحقُّ عن مقرّه، ويغلبَ الباطلُ على أهله».[1]

ولقد كان الفرد الأكثر تأثيراً في هذا المقام ابنة نبي الهدى صلوات الله عليه وآله، وهي التي استثمرت مصونية المرأة أعظم استثمار؛ مع ما تحملت من آلام ومصائب ومصاعب حتى انتهى بها الأمر اِلى التضحية بنفسها المقدسة،[2] ولكنها تمكّنت من

١. مفاتيح الجنان، دعاء الندبة.
٢. إثبات الوصية، المسعودي، ج ١، ص ١٤٦.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

قول الحق وتضيء جادته وتمنع من الوقوع في الشبهة في عقول الأجيال المتتالية.. وإنه لبفضلها اتّضح الحق حتى للمتأصّل فيهم الجور والاستبداد.. وتلك رسالة حملتها فاطمة الصديقة عليها السلام كما لم يحملها غيرها.

التأسيس للتشيّع

لقد دوّن اللّاحقون مطلع تأريخ الاسلام كجزء من الإسلام لا كجزء من التاريخ.. ولذا؛ كان تأريخ الحقبة الإسلامية الأولى ـ صدر الإسلام ـ ذا أهمّية قصوى.. إذا صار النظر اِلى الدين وتقييمه حكراً على هذه النافذة أو البوابة التاريخية.. وأضحى تكوين وتدوين النظام الفقهي والكلامي والاعتقادي من هنا؛ حيث تاريخ صدر الإسلام ـ بعد النبي صلى الله عليه وآله ـ وتحت يافطة تطبيق الإسلام الحق.. وليس خافياً وجود التفاوت بين النظرة اِلى تلك الحقبة كدين أو كتاريخ.[1]

وكانت الرسالة الزهرائية الكبرى في أن ترشد جميع الأجيال المسلمة اِلى أنّ ما وقع بعد استشهاد النبي أبيها لا يحكي عن واقع الإسلام المحمدي، وأنه لا يمكن أن يكون كذلك، ولا يسع أحداً أن يفسّره بذلك.. وإنّ إبلاغ هذه الرسالة من قبل الصديقة الزهراء كان أعظم وهم فى الإمساك بالسلطة التي يجهل رعاياها أو يتجاهلوا هذه الحقيقة.. وبهذا يمكن القول بأنّ فاطمة البتول عليها السلام هي المؤسّسة للتشيّع لآل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وإذا ما تناولنا التشيع بالمعنى العامّ ـ أي: الفكر الهادف اِلى تنفيذ الوصايا النبويّة فيما يرتبط بالوصية والامامة (بالمعنى العامّ للإمامة)، وجدنا أنّ دور الصدّيقة الزهراء عليها السلام في التعريف الصريح للخلافة ووصاية أمير المؤمنين عليه السلام، وتفهيم وتحديد والفصل بين مختلف المشارب؛ وضمن ذلك الجو المفعم بالشبهات ـ المشبوه ـ أكبر من دور أيّ فرد آخر و أوضح وأوسع فاعلية.

---

١. لمزيد المطالعة، راجع: زمينه‌هاى تفكر سياسى در قلمرو تشيع و تسنن (فارسى)، محمد مسجد جامعى، ص ٦٨-١٢٨.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

ويقابل ذلك الموقف الرسمي المرتبط بقراءة أهل السنة للاسلام، إذ نجد تفاسير أخرى مغايرة؛ مثل الموقف الشيعي، ومواقف الخوارج والمعتزلة والقدرية والمرجئة ومشارب أخرى غيرها.. وبين هذا وذاك، كان التفسير الشيعي من أهمّ التفاسير فيما يرتبط بتاريخ مرحلة الصحابة التالية لاستشهاد النبي صلى الله عليه وآله والإسلام نفسه.. وإنّ من خصائص الرؤية الشيعية تجتذب اليها ـ بشكل طبيعي ـ من كان يخالفها ويخالف التشيع عموماً.

ولا ريب في أنّ هذه الحقيقة لا تؤدّي اِلى القول بأنّ مجرّد العوامل الاجتماعية هي التي تنتهي اِلى الجذب نحو التشيّع.. بل اِنّ واقع الأمر يفضي اِلى القول بأنّ التشيع دين الله الحق وهو مدرسة ذات حقانية واضحة، وهذه الحقانية هي التي تجتذب الأفراد غير المتعصبين وغير الصنميّين والمائلين اِلى نقد التأريخ، اعني تاريخ تلك الأيام الأولى التي تلت رحيل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله.

وما يبحث هنا؛ هو دور الصديقة الزهراء عليها السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام في رسم الخارطة الشيعية والتصور إزاء سيدة نساء العالمين وعموم المعصومين.. وبهذا الصدد، فإنّ ما هو واضح ومسلّم به هو أنّ للزهراء وكذلك لأمير المؤمنين الدور الأهمّ في صياغة التشيع؛ ولا سيّما والتشيع الاثني عشري.

الاستشهاد

فبما يرتبط باستشهاد السيدة الزهراء عليها السلام وكيفية وطبيعة مواجهة أصحاب السقيفة المشؤومة لها ليس فقط بقضية الاعتداءات والجراحات التي لحقت بها من قبلهم حين الهجوم على دارها المقدّس وهتك حرمتها.. وإن اتّضاح هذه القضايا المفجعة يتمّ ـ وبالأدلّة التاريخية ـ فيما الموضوع الأصلي هو طبيعة الضغط الموجّه اِلى أهل البيت عليهم السلام بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله..

فاستشهاد الصدّيقة الزهراء وبذلك العمر القليل وفي تلك الفاصلة الزمنية القليلة؛ يحكي بنفسه عن الكلمات الروحية والجسمية التي تعرضت سيدة الجنة لها.. وذلك أنه لم تعش الزهراء عليها السلام غير (١٨) سنة أو (٢٥) أو (٢٧) سنة ـ طبقاً لتفاوت الروايات ـ مع

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

عديد أولادها، مما يؤكد سلامتها.. ولكنها توفيت فجأة بعد وفاة النبي بفاصلة بسيطة جداً (٧٥ يوماً/ ٩٥ يوماً/ ستة أشهر) والحال أنها كانت سليمة الصحة تماماً إلى ما قبل استشهاد النبي صلى الله عليه وآله.

وبغضّ النظر عن جميع هذه الدلائل، فإن الخطبة الفدكية المتواترة التي ألقتها الصدّيقة الزهراء عليها السلام كافية لإثبات تلكم المصائب والمشاكل وما سيقع فيه المسلمون ـ وإلى يوم القيامة ـ من أضاليل ومآسي..

وقد نقل هذه الخطبة العظيمة صاحب كتاب (بلاغات النساء) ابن طيفور، وهو من كبار علماء وأدباء القرن الثالث الهجري.. وذلك بعد خطبة عائشة.. مشيراً إلى أن خطبة الزهراء كانت الخطبة الأولى بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله، رغم أن خطبة عائشة جاءت بعد وفاة أبي بكر... وعموماً؛ إذا ما لاحظنا هذه الخطبة لوحدها، وجدناه تكشف مدى الضغط الشديد الذي تعرض لها أهل البيت، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين والصديقة الزهراء عليهما السلام ..

ومنذ رحلة النبي وإلى استشهاد الزهراء لا سيّما في الأيام الأولى التي شهدت ضرب الزهراء وجرحها وسقط جنينها المحسّن،[1] كانت الظروف في غاية العسر بالغة الحساسية. ثم خفّت تلك الضغوط نوعاً ما إلى أن استشهدت عليها السلام.. ففي الأيام الاولى كانت المواقف ضدّ أمير المؤمنين سلبية بتمام المعنى.. وهو الرجل صاحب الدور الأول في الاسلام بعد النبي، إذ كان بطل الإسلام العظيم.. ولكنه ـ بفعل الظروف القاسية والظلم العتيد ـ وجد نفسه مضطرّاً إلى الرّكون إلى حواشي الحياة. بل أن الأغلبية خاصمته وزوته عنها، وكأن في ذلك انتقاماً منه..

وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى سيدة نساء العالمين حيث انتقم الناس عبرهما من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تظافرت جهود الأوغاد المنقلبين على الاعقاب لتتضاعف الضغوط على أهل بيت النبوة والخير والنور... حتى انتهى الأمر إلى استشهاد ـ قتل الزهراء عليها السلام

١. الأمالي، للصدوق، ص ١٧٦.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

بالضرب على الروح والجسم الأطهرين.. وقبل هذا وذاك ما كانت الزهراء لتأذن لأحد بعيادتها بعد ظلمها و إصابتها.. وقد نقل غير الشيعة أيضاً رواية عيادة أبي بكر و عمر للزهراء في مرضها بوساطة من أمير المؤمنين عليهما السلام،[1] الذي كان يعرف مدى الخزي والعار التاريخي الذي ستلحقه بهما الزهراء عليها السلام.. وعموماً، فإنّ تلك الرواية وغيرها تكشف عن مدى الضغط الشديد والهائل الذي تعرض له الإمام وبنت الرسول...

لقد أشارت الروايات المعتبرة الصحيحة إلى أنّ جملة من الصحابة ما كانوا يرضون للنبي أن يكرّم ويشفق على أهل بيته[2] وهم أمير المؤمنين والسيدة الزهراء وأبنائهما صلوات الله عليهم أجمعين.[3] ولكن النبي كان يعي حقيقة الأمر، فراح يزيد من إكرامه وتأكيد منزلة أهل بيته في الإسلام والمجتمع المسلم ويوصي الناس ـ كراراً ومراراً ـ بهم خيراً وتمسكاً باعتبارهم سفينة النجاة وأن لا يتقدّموهم..

ثم إنّ تصاريح أمير المؤمنين عليه السلام لدى وفاة الزهراء عليها السلام ومراسم دفنها تحكي عظيم المظلومية والاضطهاد الذي تعرضا له، مضافاً إلى وصايا البتول المختصرة كانت متمّمة للكشف عن ذلك الواقع المرير.[4]

ولعلّنا نجد أروع الكلام وأجمل العبارات والمقطوعات الأدبية والبلاغية في كل أمة من الأمم حين يفقد عَلَم من أعلام الأدب عزيزاً عليه أو يتعرّض إلى مصيبة مفاجئة.. وهكذا كانت خطبة الإمام وشكواه المؤلمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وشرحه للمصائب التي تعرّض وزوجته الجليلة لها.. وعباراته فيها أجمل وآلم العبارات حتى بالقياس إلى خطبه الأخرى؛ وهي جميلة ورائعة كلّها.. ولكنه راح يناجي سيد النبي حين دفنه لعزيزته ومهجة فؤاده بصوت حزين، ويقول:

«السلام عليك يا رسول الله، عنّي وعن ابنتك النازلةِ في جوارك، والسريعةِ اللّحاق

---

١. الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج ١، ص ٣١؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٩٨.
٢. (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى). الشورى / ٢٣.
٣. أنساب الاشراف، البلاذري، ج ٢، ص ١٠٤.
٤. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٣٩؛ تاريخ المدينة المنورة، ابن شبّه، ج ١، ص ١٠٧.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]

بك.. قَلَّ يا رسول الله عن صفيّتكَ صبري، ورقّ عنها تجلّدي.. اِلّا أنّ لي في التأسّي بعظيم فُرقتكَ وفادح مصيبَك موضع تعزّ.. فلقد وسّدتُكَ في ملحودةِ قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسُك.. اِنّا لله وإنّا إليه راجعون.. فلقد استُرجعتِ الوديعةُ، واُخذِت الرهينة.. أما حزني فسرمدٌ، وأمّا ليلي فمسَهّدٌ اِلى أن يختارَ الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، وستنبّئُك ابنتك بتضافر اُمّتكَ على هضمها.. فأحفِها السؤال، واستخبِرها الحال، هذا ولم يطُلِ العهدُ ولم يخلُ منك الذكرُ، والسلام عليكما سلامَ مودّعٍ؛ لا قالٍ ولا سَئمٍ، فإن انصرف؛ فلا عن ملالةٍ، وإن أقم؛ فلا عن سوءِ ظنٍّ بما وعد الله الصابرين».[1]

وهكذا هو اُوج الصبر والتّحمل والأدب والأخلاق وعظمة الروح وجلال العظمة.. فسلام الله عليه يوم ولد ويوم يستشهد ويوم يُبعث حيّاً...

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٢.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2024-04-20]